"جرائم الدولة،الكوميديا القضائية" لجاك فرجاس
قراءة في بلاغة النص السير ذاتي

د/ نوال بن صالح
جامعة بسكرة

الملخص :

يتناول هذا المقال البحث في آليات إنتاج البلاغة في جنس أدبي شديد الخصوصية ،هو النص السير ذاتي أو ما يعرف بفن الاعتراف، لواحد من أشهر الشخصيات المثيرة للجدل في القرن العشرين ،إنه المحامي "جاك فرجاس" Jacques Vergesالذي يؤرخ في كتابه "جرائم الدولة/الكوميديا القضائية" لتجربته الشخصية مع العدالة الفرنسية،سيما فترة دفاعه عن المجاهدين الجزائريين ومن ثم القضية الجزائرية إبان فترة حرب التحرير.كل ذلك بأسلوب بديع يجمع بين الإمتاع الفني وغواية الحقائق التاريخية.

Abstract:

State Crimes / Judicial Comedy, insights into autobiographical rhetoric

This paper purports to investigate autobiography as a specific literary genre. In this field, the French international lawyer Jacques Verges appears as one of the most controversial personages of the Twentieth Century. Verges earned notoriety in his involvement in delicate cases, such as the FLN fighters' trials. In his autobiography "State Crimes/ Judicial Comedy", he narrates his early experience with the French judiciary system.

استهلال:

انصرفت جهود الدارسين و النقاد المعاصرين إلى جل الفنون الأدبية كالقصة و الرواية والشعر والمسرح،لكن المثير للعجب أن النص السير ذاتي بأشكاله، ما يزال حتى اليوم يفتقر افتقارا شديدا إلى مثل هذه العناية، سيما المؤلفات التي ارتبطت تجارب أصحابها بأحداث مفصلية في تاريخ الجزائر الحديث،مثلما هو الحال في كتب المذكرات الشخصية و الاعترافات والشهادات التاريخية التي سجل فيها أصحابها تاريخ صراع الجزائريين مع الاستعمار الفرنسي من منظورهم الخاص،و لعل ورود جل هذه الكتب باللغة الفرنسية و ندرة الترجمات التي مست القليل منها،هو ما جعل النقاد و الباحثين لا يولونها الاهتمام الكافي بالرغم ما فيها من غواية الفني و التاريخي على حد سواء.

1-في مفهوم النص السير ذاتي:

الحقيقة أن التعريف الجامع المانع للنص السير ذاتي ضرب من المحال، و مرجع ذلك طبيعة هذا النوع الأدبي الذي يعرض فيه المؤلف- صاحب السيرة - لحياته الواقعية أو لمرحلة منها، في أسلوب أدبي وفي صور متعددة،قد يتخذ فيها النص السير ذاتي من حيث الشكل ثلاثة قوالب:قالب روائي وقالب تفسيري تحليلي ،و قالب يجمع بين التحليل و التصوير،حيث يميل في القالبين الثاني والثالث إلى الشكل المقالي أو الاعترافات[1].و تجدر الإشارة إلى أن نظرية السيرة الذاتية متأخرة في الظهور عند الغربيين و أكثر تأخرا عند العرب المعاصرين، ولهذا السبب كان الحديث عن جنس السيرة الذاتية قبل"اعترافات" روسو التي ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر ضربا من المجازفة.[2]

وكتاب "جرائم الدولة/ الكوميديا القضائية" Les Crimes d'états/La Comédie judiciaire يندرج ضمن إطار ما يطلق عليه"الشهادات التاريخية" أو "الاعترافات"،و هو شكل لصيق بالأدب السير ذاتي الذي ينطلق فيه الكاتب من تجارب شخصية حقيقية محللا إياها من وجهة نظره الشخصية و لا يتطلب ذلك تناول مراحل الحياة المختلفة،بل يتميز هذا الشكل من النصوص بالتركيز على مرحلة سياسية أو تاريخية معينة و هذا ما نجده في المؤلف موضوع البحث.

و لعل الشهادات التاريخية التي كتبت عن ثورة التحرير المظفرة تعد بالمئات و لا يتسع البحث لعرضها،لكن الشهادات التي جاءت من الفرنسيين أنفسهم و تسلط الضوء على جرائم فرنسا، و تعرضها عارية أمام العالم و التاريخ ليست كثيرة،و هذا الأستاذ "فرجاس"Vergès واحد من هؤلاء الذين أسهموا بشكل كبير قي قراءة صادقة ،موضوعية للتاريخ الاستعماري الفرنسي في الجزائر،معتمدا على الفضح التاريخي برؤية تحليلية نقدية لا تكتفي بسرد الحدث بل تتعداه إلى ربطه بتراكمات تاريخية لفرنسا و الغرب الاستعماري على حد سواء.

2-الكاتب:

شغلت السيرة الذاتية للأستاذ "جاك فرجاس" Jacques Vergès عديد الكتاب والمؤرخين و حتى السينمائيين لما فيها من فترات غامضة. و "جاك فرجاس" فرنسي الجنسية ولد لأم فيتنامية و أب من جزر(La Réunion) في 05 من ماس 1925م في تايلاند ،محام اكتسب شهرة واسعة من خمسينيات القرن العشرين و استمرت شهرته حتى وفاته.هذه الشهرة التي تمتع بها بسبب تبنّيه لقضايا حقوقية كبيرة. وكان الكفاح الأكبر لهذا المناضل حسب المؤرخين هو نضاله من أجل استقلال الجزائر حتى أنه غادر الحزب الشيوعي الفرنسي سنة1957م، بسببه موقفه الفاتر حيال ما كان يحدث في الجزائر إبان حرب التحرير.

و "فرجاس"هو الأخ التوأم للسياسي "بول فرجاس"Paul Vergès ،اقترن اسم "جاك فرجاس بقضايا الرأي العام، كان من أشهرها دفاعه عن المجاهدة الجزائرية أيقونة الثورة التحريرية "جميلة بو حيرد" أضف إلى ذلك دفاعه عن شخصيات كثيرة سياسية و غير سياسية، من أمثال "كارلوس" في قضية الإرهاب الدولي سنة 1994م،"روجيه غارودي" في قضية إنكار محرقة النازيين لليهود سنة 1987م، و قضية "عمر رداد" الشاب الذي اتهم بقتل سيدة المجتمع الفرنسية:"غيلان مرشال" وعشرات من الشخصيات التي يثار حولها التساؤل.توفي فرجاس في 15 من أغسطس العام 2013 م إثر سكتة قلبية، و قد جاوز 88 سنة من العمر، قضاها في الدفاع عن مبادئ كان يؤمن بها حتى النخاع، و قد ظل أمر اختفائه –دون سابق إنذار– بين سنتي 1970م و 1978م سرا لليوم.[3] لفرجاس مؤلفات عديدة بعضها ترجم إلى العربية وبعضها لا يزال. نذكر منها:

La passion de défendre/Que mes guerres étaient belles/ La " Justice est un jeu

3- **الكتاب:**

"جرائم الدولة:الكوميديا القضائية" واحد من أشهر ما كتب عن انتهاكات فرنسا الاستعمارية للقوانين الدولية و لمبادئ الثورة الفرنسية نفسها، و حقوق الإنسان خلال فترة استعمارها الجزائر، سيما فترة حرب التحرير التي امتدت من 1954م إلى 1962م، تاريخ استقلال الجزائر،حيث بقيت هذه الفترة مشوشه في أذهان كثير من الفرنسيين، بين متهم للثوار بالإرهاب و مؤمن بحق فرنسا في الدفاع عن الفرنسيين في الجزائر، انطلاقا من الاعتقاد الراسخ من أن الجزائر قطعة من فرنسا لا تتجزأ، و بين معترف بحق الشعب الجزائري في نيل حريته كما الشعوب الأخرى،وتقرير مصيره في أرضه التي سيطر على مقدراتها الاستعمار و سيّدَ عليها المعمرين بلا وجه حق،و رافض لمجرد فكرة مطالبة الجزائريين بالاستقلال عن فرنسا يأتي كتاب الأستاذ "فرجاس" محللا مختلف الحوادث و المراسلات التي كانت بين جنرالات فرنسا في الجزائر و باريس،برؤية المحامي المتمرس و رجل العدالة الخبير بالقوانين ،يكشف ما خفي من تناقضات جهاز العدالة الفرنسية.

يقول موسى زمولي مترجم كتاب "جرائم الدولة،الكوميديا القضائية":"لفرنسا والغرب عامة الحق بالافتخار برجال أمثال "فرجاس" لأنه دليل على أن هذه الأمم لم تنجب فقط استعماريين وصليبيين وعدوانيين جشعين و عنصريين،و لكن كان لدى هذه الأمم رجال مفكرون منصفون عادلون. ومن حق الجزائر أيضا أن تفتخر بجاك فرجاس و رفاقه ممن وقفوا بكل بسالة إلى جانب قضيتنا العادلة في أصعب مراحل ثورتنا المظفرة، و كانوا أبطالا مسبلين،سلاحهم كلمات أقوى من الرصاص. ألم ينصح جاك فرجاس بني جلدته بأنهم إن لم ينتبهوا فإن "ديان بيان فو" جديدة على المشارف.."[4]

تطرق الكتاب إلى منعرجات عنصرية و مهازل قضائية مؤلمة قدمت في قالب تاريخي وبأسلوب جذاب يربط بين ماضي فرنسا البعيد و حاضرها أيام استعمارها للجزائر ،يفضح الكاتب من خلال سرد حقائق تاريخية ثابتة و بالتواريخ و الوثائق، ممارسات عنصرية استبدادية وتجاوزات قضائية مكشوفة، و تجنيات استعمارية فاشية

على ثوار جبهة التحرير بشكل خاص والشعب الجزائري الرافض لفرنسا الاستعمارية بشكل عام.يقول الأستاذ موسى زمولي مترجم الكتاب:" جريمة الدولة شهادة حية لنضال الجزائريين و الفرنسيين معا جنبا إلى جنب من أجل تصحيح وضع مأساوي،و إيقاف همجية باتت مرفوضة لدى المجتمع الدولي".[5]

4- بلاغة العنونة:

تعد العناوين بمثابة رسائل مسكوكة،مضمنة بعلامات دالة و معبرة و مشبعة برؤى العالم،يغلب عليها الطابع الإيحائي.فالعنوان هو الذي يسمي النصوص و الخطابات،و يعيّنها ويخلق أجواءها النصية و التناصية،و ذلك عبر سياقها الداخلي و الخارجي،علاوة على استيعابه للأسئلة الإشكالية التي تطرحها هذه النصوص أو الخطابات،و ذلك عبر عناوينها الوسيطة والبؤرية.

وليس من شك في أن عنوان النص –أيا كان نوعه– يمثل الإشارة الأولى التي يصادفها المتلقي عندما يبدأ عملية القراءة،لذلك عنى النقد الحديث بالعنونة عناية كبيرة لما لها من تأثير في المتلقي،و اللغة المُشَكلة للعنوان هي الأساس في إثارة إدراك المتلقي و اندغامه مع ما يقرأ.

فقد يصادف القارئ عنوانا مباشرا تاريخيا أو عنوانا يحمل معنى مخزونا في وعي المتلقي و في ثقافته. و لكن العنوان يظل المحور الأساس الذي ينفتح على النص، و ينفتح النص عليه.فكثير من العنوانات تكون الشرارة الأولى التي تجعل المتلقي يغرى بالقراءة والانجرار إلى متاهات النص سيما إن كان النص ذا طبيعية تاريخية لا تتمتع بهذه القوة الفنية التي تغري بقراءة مثل هذه النصوص. يحقق العنوان في "جرائم الدولة،الكوميديا القضائية" بلاغته ضمن آليتين هما:

4-1 آلية التناص:

تتوقف "نصية" أي نص على الدخول في علاقات من التماثل و الاختلاف مع نصوص سابقة وراهنة ،و التناص هو قانون اللغة،فكل كائن (مفردة) من كائنات اللغة يساق إلى محفل نص وعبر عمليتي الاستدعاء و التحويل،يجر معه ترسانة من الآثار و العلاقات التي مر بها عبر تاريخ اللغة ذاتها. و هكذا ينفتح النص على منجم،عالم من الخطابات و النصوص التي لا يمكن التكهن بجغرافيتها وأصولها.[6]

جاء عنوان: "**جرائم الدولة/الكوميديا القضائية**" صادما يخترق أفق توقع القارئ حيث يتناص العنوان مع عمل الفنان الإيطالي "دانتي" المعروف بـِ:" الكوميديا الإلهية" ليستحضر الكاتب هذه الملحمة التاريخية و يستبدل لفظ: "الإلهية "ب "القضائية" على سبيل السخرية والهزء من جرائم الدولة و فضائح القضاء التي ارتكبتها فرنسا في حق جبهة التحرير الجزائرية إبان الثورة التحريرية.

يشي العنوان من البداية بالجرأة و بالسخرية اللاذعة التي تمارس على القارئ غواية شديدة و استفزازا كبيرا لقراءة هذه الشهادة الحقيقية لرجل عايش مراحل مختلفة من تاريخ الجزائر مع فرنسا الاستعمارية باعتباره كان شاهدا على المحاكمات الظالمة لأبطال جيش التحرير. وهكذا يرسم العنوان بكائناته اللغوية قليلة العدد فضاءات شاسعة من العلاقات التناصية التي تمده بقوة التأثير.

يقسم الأستاذ" فرجاس" كتابه إلى ثلاثة فصول:الفصل الأول يختار له عنوان:"جرائم الدولة" و هو عنوان عارٍ صادم ينطلق فيه الكاتب من تعريف هذا المصطلح من الجانب القانوني ليثبت أن ما فعلته فرنسا في الجزائر يندرج ضمن جريمة الدولة،لينتقل إلى كشف بعض الجرائم التاريخية التي حدثت باسم الدولة في تاريخ فرنسا و أوروبا أيام النازية، ثم ينتقل إلى جرائم فرنسا في الجزائر.أما الفصلان الثاني و الثالث فيختار لهما الكاتب عنوانا واحدا هو **الكوميديا القضائية**" لكنه يذيل عنوان الفصل الأول بجملة:"**العدالة المقنعة**" La justice masquée و الفصل الثاني بجملة:"كشف القناع عن العدالة/محاكمة القطيعة" La justice démasquée: Le procès de rupture ليتمكن الكاتب –ببلاغة العنونة– من الانتقال بالقارئ عبر التواريخ والأحداث السياسية بتفصيلاتها مخاطبا مقدرته على التحليل و الاستيعاب و المقارنة ليخلص في الأخير إلى نتيجة واحدة و هي أن ما قامت به فرنسا في الجزائر لا يعدو أن يكون جرائم دولة حاولت أن تغطيها بمحاكمات أقرب إلى الكوميديا منها إلى العدالة.

2-4 آلية الاخـــ(ت)لاف:Différance

مصطلح سُكَّ في الحقل التفكيكي بدمغة "جاك دريدا":و المصطلح يشير بهذه الصيغة المقتصدة إلى مستويين من الاشتغال:المباينة و المغايرة عبر قراءة الكلمة برفع

القوسين، الاختلاف Différence و الإرجاء و التأجيل بتثبيت القوسين.[7] فالمصطلح يجمع معا معاني الاختلاف العادي إضافة إلى كل دلالات فعل التأجيل و الإرجاء.[8]

من خلال المفهوم الأول- أي المباينة- يعمل الاختلاف على منح خطاب العنوان تمايزه و تغايره و يكتسب القدرة على إحداث المباينة.أما على صعيد المفهوم الثاني -أي الإرجاء والتأجيل- يكتسب العنوان إمكانية عدم الحسم،و تمنح العنوان حركة سديمية على الصعيد الدلالي حيث لا يمكن الحديث عن معنى ناجز و نهائي له، و ذلك لكون العنوان بوصفه نصا يقيم علاقات تناصية مع نصوص سابقة له و لاحقة و راهنة في الوقت نفسه،فما دام "الدال" لا ينفك يمارس إحالة مستمرة على الخطابات والنصوص، فهو مرجأ المعنى،مؤجل على نحو أبدي.[9]

لا شك أن طريقة صياغة العنوان تتوقف بالأساس على براعة الكاتب سواء أكان العنوان رئيسا أم فرعيا، و إذا وقفنا على عنوان الكتاب:"جرائم الدولة /الكوميديا القضائية" نجده شديد الدقة في إحالته للنص المعروض لاحقا و ممارسة آلية الاختلاف معا، حيث يصف العدالة الفرنسية الاستعمارية ب (الكوميديا) و معروف أن الكوميديا "Comédie" قصة هزلية تقوم على مبدأ المرح و الضحك و لا يكون موضوعها جادا كما في التراجيديا،ثم أنها تنتهي نهاية سعيدة.

لكن المفارقة في الكوميديا القضائية الفرنسية التي كتب عنها "فرجاس" مقترنة بجرائم دولة حقيقية قصتها واقع تاريخي مثبت بالوثائق، و نهايتها ليست النهاية السعيدة التي تعوّد شعراء الكوميديا الإغريقية أن يختموا بها روائعهم المسرحية،إنها مقاربة مختلفة بعيدة عما هو متوقع لقارئ يطالع نصا تاريخيا يفترض أن يكون أقرب ما يكون إلى المباشرة ، هي كوميديا جديدة سخريتها "سوداء" تمارس الضحك من الوضع الذي آلت إليه قيم الجمهورية التي أسس لها" روسو"Jean Jacques Rousseau خلال محاكمات ثوار جبهة التحرير و قبل ذلك في الإعدامات الممنهجة التي كانت تطال الثوار و العزل و التي كان يشرف عليها جنرالات النظام الجمهوري تحت غطاء جمهوري.

و هكذا فالعنوان ليس عنصرا زائدا كما يتصور، فهو في الحقيقة رأس بالنسبة للجسد، والنص تمطيط له و تحوير،إما بالزيادة أو الاستبدال تارة ،و إما بالنقصان و

التحوير تارة أخرى.[10] ولهذا نجد تعاضد العناوين في المتن"جرائم الدولة،الكوميديا القضائية" لتخدم العنوان الرئيس.

5-بلاغة المقارنة التاريخية:

إن البحث في الأسباب المفسرة للظواهر التاريخية يخضع في النص السير ذاتي إلى مبدأي الانتقاء و التأويل،فعلى المؤرخ أن ينتقي الأسباب العميقة التي حركت أحداث الماضي ودفعتها إلى التحقق على النحو الذي كان،و لكنه لا يستطيع بلوغ هذه الغاية إلا من خلال امتلاك تصورات و تخمينات تقوده فغي عملية الكشف عن تلك الأسباب و تنظيمها،بحيث تغدو ممكنة و مقبولة.[11]

تتجلى في نص"جرائم الدولة،الكوميديا القضائية" مقدرة "فرجاس" على رؤية الأحداث رؤية تاريخية واسعة، عميقة لا تقف عند حدود الحدث، بل تتجاوزه إلى التحليل و المقارنة مع أحداث سابقة شبيهة أو متطابقة أو مناقضة، و من خلال الانتقال بين الأحداث المتباعدة التي لا علاقة لها ببعضها البعض–ظاهريا– يمسك الكاتب بخيط رفيع بين هذه العلاقة الغريبة بين ماضي فرنسا الملكية و تاريخها مع جبهة التحرير. تحت عنوان فرعي" **التحضيرات الأولية**" وقبله عنوان رئيس مذيل بسطرين على النحو الآتي:

مسلسل الإعدام

(Serial Bourreau)

(Le Général Aussaresses)

و قبلها مباشرة كان يحدثنا عن جرائم النازية في الحرب العالمية الثانية و كيف كان جنرالات "الفوهرر" يبررون ما يرتكبون تحت بنود كثيرة، ينقلنا هذه النقلة مع فارق الزمن ويقول"إن الانتقال من "ألبيرت شباير"إلى اللواء "بول أوساراس" هو مثل الانتقال من الدكتور"فوست"Faust إلى الأب "يوبو"Ubu. مع اللواء "أوساراس" لا داعي للذهاب بعيدا،فالجلاد يجد المتعة في القيام بعمله.لا افتراء في ذلك،كانت حجته المتكررة الوحيدة حماية الوطن،دون أن يخطر بذهن الضابط الجمهوري بأنه لا يستطيع أن يتعامل بنفس المعاملة مع فرنسيين آخرين يتمتعون مبدئيا بنفس الحقوق..."[12]

في هذا الربط التاريخي البارع بين شخصية أدبية هي "فوست" و شخصية كاريكاتورية حمقاء كشخصية" أيوبو" و بين الجنرال "أوساراس" يصدم الكاتب القراء

بالتشابه الكبير بين هذه الشخصيات مع اختلاف السياق.بل ينتقل الكاتب بعد ذلك من الحديث عن اغتيال "بن مهيدي" و يسميه "اغتيالا" إلى فترة تاريخية أخرى من تاريخ فرنسا وتحديدا عام 1899م حينما استلم "أناتول ديبلر" مهمة تنفيذ الإعدامات في حق المجرمين بعد أن كلفته الجمهورية و من ثم الشعب بذلك، و يقارن بينه و بين "أوساراس" :"لم يكن ديبلر فيلسوفا و لا مشرعا.كان دوره التنفيذ و إذا لم يفعل ذلك ستنخفض أسهمه في عينيه و في أعين الحكومة التي يخدمها. أما "أوساراس" فهو في نفس الوقت الشرطي الذي يلقي القبض على الناس والقاضي الذي "يتقصى الأمور" والحاكم و الجلاد.و لذا فإن "ديبلر" ما هو إلا أحد المتدخلين من بين آخرين:بعد الشرطي و بعد قاضي التحقيق و بعد محلفي جلسات المحكمة،على عكس "أوساراس" الذي أنشأ و أدار" نظاما للقتل دون عدالة"..."[13]

يقارن "فرجاس" مرة أخرى بين " أناتول ديبلر" جلاد للعدالة الفرنسية في 1899م والجنرال"أوساراس" جلاد الجمهورية الفرنسية فيجد الشبه كبيرا جدا إلا إذا استثنينا الوحشية، وكسر القوانين ،التي نجدها عند جلاد الجمهورية الرابعة، في مفارقة عجيبة لقيم الجمهورية يقول "فرجاس" "لا تهم بالنسبة لأوساراس، وسيلة التخلص من المشبوهين:إغراق أو شنق أو قتل بالرشاش الأوتوماتيكي،أو السقوط من الطابق السادس...و على عكس من ذلك فإن الأمر بالنسبة لديبلر عملية مشروعة رسميا و التي تملي بكل تفصيل و دقة سيناريو القتل الذي تحضره الجماهير..."[14]

تكشف هذه المقارنات الصادمة تاريخ فرنسا المتناقض مع مبادئ الثورة الفرنسية،و تنزع القناع عن الممارسات القمعية التي كان المستعمر الفرنسي يغض الطرف عنها بل و يشجعها في الخفاء،يواصل "فرجاس" في فضح جلادي فرنسا" كما أن أوساراس يمسك دفترا بخصوص زبائنه،فإن أناتول ديبلر يملأ بكل عناية سجل التنفيذ.يسجل الجلاد السري للجيش الفرنسي بالجزائر كل ليلة عدد ضحاياه،أما جلاد الجمهورية الرسمي،فيقدم تقريره قبل و بعد القيام بمهمته و بعد كل عملية إعدام.لا يسجل بول أوساراس في ورقات دفتره الموجهة لرؤسائه،أي هوية ويحول الإبادات الجماعية إلى قرار مقنع.كان يكذب، أما أناتول ديبلر يحرر محاضره ليمسك حساباته الشخصية..."[15] و بهذه المقارنة يمكن للملتقي أن يدرك أن الفرق الوحيد بين الجلادين وهو نفاق أوساراس و مسؤوليه.

هكذا تمسي المقارنة بين الأحداث التاريخية ،و فضح أوجه التشابه بينها وسيلة من وسائل بلاغة الخطاب، و قوة إقناعه كونه يخاطب العقول من خلال المعطى التاريخي الثابت. ولذلك تضع مثل هذه النصوص القارئ الفرنسي بوجه خاص و القارئ الغربي بوجه عام في مواجهة جملة القيم التي تدافع عنها الحضارة الغربية.هذا التناقض بين ادعاء الأفكار و الإيمان بها فعليا هو الذي يولد غواية المتلقي.

6- بلاغة السخرية:

السخرية في مفهومها هي الهزء بشيء ما لا ينسجم مع القناعة العقلية،و لا يستقيم مع المفاهيم المنتظمة في عرف الفرد أو الجماعة،إنها موقف متعال،مزدر بما هو شاذ،غريب،منقطع عن المألوف.(16)

بالرغم من بشاعة الشهادات التي يرويها "الأستاذ فرجاس" إلا أنه لا يعدم روح السخرية و يوظف أساليبها في كل فصول الكتاب. و لعل هذا ما يؤكد الرأي القائل بأن الباعث الأساسي للسخرية هو مناقضة رأي الجموع أو ذوقه أو هي "مشادة مع عالم مبتذل"(17) وهو الأمر ذاته الذي يسعى إليه "فرجاس" في كتابه إنه يخاطب الجلادين و حماة الجمهورية الفرنسية بالأساس قبل أن يخاطب الضمير الإنساني.إن جوهر السخرية ليس فيما اختاره لها الساخر من معاجم ملتبسة الدلالة،و لكن فيما تحدثه من أثر متوقع في نفس قارئها.(18)

لقد وظف الروائي المفارقات الساخرة التي تعج بها كتابات الإنسان الأبيض و التي برر بها استعمار الشعوب الأخرى، و ليس غريبا أن تصدر عن علماء و فلاسفة يدعون معرفة الحقيقة،يورد حديث "شارل وايت" -و هو طبيب إنجليزي مشهور- كتب سنة1799م يقول:"أين يمكنك تجد-ما عدا الإنسان الأوربي-هذا الرأس النبيل المحدودب الذي يحمل تلك الكمية الهائلة من المخ؟ هذا الوجه العمودي و هذا الأنف المرتفع و الذقن المستدير البارز؟هذه الملامح المختلفة والمعبرة هذه الخدود الوردية و الشفاه المرجانية؟.."(19) بهذه الطريقة التي يتظاهر فيها فرجاس بالحياد يورد النصوص على ألسنة أصحابها متدخلا أحيانا بعرض بعض الحقائق أوالتعليقات ،لتكون السخرية بذلك أشد إيلاما.يقول عن "دارون" : "وهاهو داروين العظيم نفسه لا يتردد في الكلام عن "الأجناس المتوحشة"..."(20)... و هاو هو داروين الذي استاء لإبادة الهنود الحمر في الأرجنتين، و

كذا إبادة "التسمانيين" التي كان شاهدا عليها،انتهى به الأمر للاستسلام ... ويعترف في رسالة كتبت سنة 1859م بأن التطور يمكن أن يبرر إبادة الأجناس الأقل ذكاء!"[21]

إن السخرية في هذا المقام وليدة التناقض الصارخ بين ما يدّعيه هؤلاء المفكرون من فكرة النهوض بالبشرية، و بين ما أقروه من إلغاء الآخر لمجرد الاختلاف في اللون أو العرق أو"التقدم الحضاري".

يستعين "فرجاس" بعلامات الترقيم لينبه إلى مواطن التناقض في الكلام و من ثم مواطن السخرية. و علامة التنصيص(" ") -بما تضطلع به من دور في التحفظ على المنصوص -أكثر العلامات التي تَغيَّى بها الكاتب السخرية.يقول في سياق حديثة عن محاكمات جبهة التحرير Les procès du F.L.N :"عندما اندلعت حرب الجزائر،في نوفمبر 1954م تمثل رد فعل السلطات الفرنسية في نكران طابعها الوطني و القول بأن الجزائريين فرنسيون،و عليه فإن أعمال المقاومة في نظرهم تقع تحت جرائم القانون العام ،تتطلب ردعا قضائيا بحتا،لكنه تم تكليف عدالة عسكرية لمعالجة قضايا "القانون العام"..."[22] يضع فرجاس الجملة الأخيرة بين علامتي تنصيص لتناقضها مع ما ادعته فرنسا (قانون الحق العام/محاكمات عسكرية).

و في موقف آخر و بعد عرضه لمبررات كثير من العلماء و المفكرين و الساسة وحتى رجال الدين للإبادات الجماعية التي حدثت في التاريخ ،كإبادة الهنود الحمر و شعب الكونغو يقول:"و هكذا بعد تبرير "علمي" و تزكيته من بعض الجهات الكنائسية،و بترحيب من فلسفة ليبرالية التقدم،يمكن تصفية المتوحشين دون مراعاة القانون الدولي،و لا حتى قوانين حماية الحيوانات..."[23]

في الجزء الذي يروي فيه "فرجاس" محاكمة جميلة بوحيرد يوظف اللغة الساخرة الصادمة نفسها من العدالة المقنعة يقول:"بدأت القضية في جويلية 1957 عندما صدر الحكم في القضية التي عرفت باسم "قضية القنابل"بالإعدام على جميلة بوحيرد و جميلة بوعزة و عبد الرحمن طالب،و عبد الغني مرصالي،بتهمة مسؤوليتهم على عدة انفجارات منها انفجاري Milk barو Le coq Hardi ..."[24] و بعد الحديث عن الضجة الدولية التي أثارها وجود فتاتين معرضتين للحكم بالإعدام، يعلق فرجاس على ما قالته صحيفة"لو موند"الفرنسية عن جميلة بوحيرد:" بأن لها هيمنة معنوية تجعلها تجسد روح

"الإرهاب"..."[25] لفظة "الإرهاب" التي تطلقها فرنسا على من يدافع عن حقه في الحياة بين علامتي تنصيص لأن مفهوم فرنسا للإرهاب يتغير حسب المعطيات و السياق التاريخي.

و مثلما يمارس "فرجاس" أسلوب السخرية في النصوص،يمارسه الأمر نفسه في العنوانات الفرعية التي يعج بها الكتاب. و أول ما يشد انتباهنا في هذه العناوين اعتمادها على المفارقات الدلالية الصارخة،فقد تتجاور اللفظتان تجاورا تركنهما تتقابلان دلاليا من ذلك :"وجهان للموت في كنف الديمقراطية" أو "الإعدام جزء من برنامج الرحلات السياسية" " فقد نهضت المفارقة الساخرة على التناقض بين دلالات ألفاظ مثل:"موت /في الديمقراطية" و"الإعدام/الرحلات السياحية" و قد تنشأ السخرية من تناقض العنوان مع مضمون الفقرة . مثل:"الديك الرومي بالترفاس"، فتحت هذا العنوان نجد الكاتب يحدثنا عن تفصيلات احتفال المجتمع الفرنسي بمناسبة تنفيذ الإعدامات في القرن التاسع عشر، و تمسي هذه التفصيلات مثارا للسخرية من الطبيعة البشرية المتناقضة يقول:"يتحول الأمر في بعض الإعدامات إلى حفلات دنيوية...جاء بعض المدعوين بسبب متسع الوقت،مزودين بنقانق المرتديلا،و الخبز وزجاجات من نبيذ البوردو.أما محافظ الشرطة فقد طلب إحضار ديك رومي مطهو مع مرق الترفاس أُعد خصيصا من طرف جزار الحي بهذه المناسبة..."[26]

فالسخرية من خلال النصوص و العناوين تمارس الهدم و الكشف ،وهو الهدف الذي تغيّاه الكاتب من خلال كشف الفضائع التاريخية و الخلل النسقي في الشخصية الغربية،فمن وظائف السخرية أنها تعالج المثال الخاطئ،من أجل مسخه بطريقة كاريكاتورية،تفضح العيوب، وتجعل صاحبها ينفر من صورته.[27] من هنا تمسي السخرية سلاحا ذكيا لمسخ النموذج الخاطئ،هذا المسخ ضروري لمرحلة البناء.

7- بلاغة الفضح:

يعمد "فرجاس" بأسلوب الفضح إلى كشف اعوجاج العدالة الفرنسية،و تعرية ممارساتها أمام القارئ ليمده بوسائل الحكم عليها.يأتي هذا الفضح على لسان الكاتب أحيانا في مثل تعليقه على علم السلطات الفرنسية بالإعدامات اليومية التي كان يقوم بها الجنود الفرنسيون بإشراف الجنرالات:" أصبحت هذه الممارسات الخطيرة معروفة لدى كامل

الجيش الفرنسي و أثارت عدة تعليقات.كانت ستطلب أي دولة تحترم نفسها،من أوساراس المثول مباشرة أمام محكمة عسكرية كمجرم حرب.أم افي الجمهورية الرابعة،فقد حصل العكس.لقد رقي،أصبح رائدا بعد أن كان نقيبا.و عين بالقيادة العامة تحت رئاسة اللواء ماسو Massu في إطار العملية الموازية..."[28] وأحيانا أخرى يكون الفضح على ألسنة الجلادين أنفسهم من خلال الوثائق العسكرية للجمهورية الفرنسية أو حتى من خلال مذكراتهم التي نشروها بلا خوف من المحاكمة أو حياء من الضمير الإنساني،يقول:" صرح بيير منداس فرنس،الوزير الأول في الجمعية الوطنية بأن حكومته أمام "أحداث" الجزائر،لن تكون متسامحة. و أضاف فرانسوا ميتيران،وزير الداخلية:" لا تفاوض مع أعداء الوطن،المفاوضات الوحيدة هي الحرب"[29]

إن هذا الفضح الذي يبدو فيه الكاتب كما لو كان محايدا، يجبر القارئ على عدم الحياد،إنها لعبة يتواطأ فيها كل من الكاتب و القارئ على إدانة الجلاد،لذلك نجد "فرجاس"يؤكد على معرفة السلطات بما كان يرتكب في الجزائر عكس ما كانت تدعيه،يقول:"كـــان الضباط المكلفون بالتعذيب و الإعدامات اليومية،يريدون التأكد بأن الحكومة واعية بهذه الممارسات ، وأنها موافقة عليها.باح "ماكس لوجون" بسر لــِ"ماسو": " تتذكرون الطائرة التي كانت تحمل بن بلة؟...عندما علمت الحكومة بأن هؤلاء ذاهبون من المغرب إلى تونس،أمرت مطاردات وهران بإسقاط الطائرة و إذا كنا قد ألغينا الأمر فذلك لأننا علمنا في اللحظة الأخيرة،بأن طاقم الطائرة كان فرنسيا.تأسفت من جهتها الحكومة ،بأن يكون بن بلة لا يزال على قيد الحياة.و كان اعتقاله خطأ.علق أوساراس:عندما قص علينا ماسو هذه الخرافة أصبح الأمر جليا بالنسبة لي:سأنفذ الإعدام،في اثني عشر رجلا،في الليلة الموالية.كان بإمكاني ترك هذا العمل المضني لبيجار، ولكن فضلت أن أقوم به بنفسي..."[30]

إن مقدرة الكاتب على غواية القارئ بهذه الحقائق العارية على ألسنة أصحابها و التي سجلوها في اعترافاتهم المكتوبة،تضاهي في قوتها عبقريته في تحليل الأحداث التاريخية و ربطها ببعضها البعض،و تفسير اعوجاج منطق الساسة في التعامل مع الأحداث.فالفعل التاريخي باعتباره فعلا تفسيريا،لا يمكنه أن يكون معاصرا لما يريد تفسيره،إذ لا بد من من معرفة مآل الأحداث التي يؤرخ لها،و ما قد أسفرت عنه من

نتائج،ليمكن فيما بعد إعادة تركيب النسق الحدثي وترتيب عناصره الفاعلة ترتيبا سببيا قادرا على أن يفسر منطقيا المآل الذي جسدته كل الأحداث المستعرضة.[31] فالعرض التاريخي في نص"الكوميديا القضائية" يتجاوز فكرة الحياد،و يمارس قراءة نقدية مختلفة لتفصيلات الأحداث التاريخية.

خلاصة:

يقول "فرجاس" في جملة شديدة الكثافة في كتابه هذا"إنها الكوميديا القضائية و هي ليست من خصوصيات عصرنا،بل كانت حاضرة في كل العصور..."[32] لقد أمكن للأستاذ "فرجاس" أن يسجل شهاداته التاريخية –كمحام شهير كان شاهدا على ممارسات الجمهورية الفرنسية في عهد الاستعمار البغيض– بأسلوب يجمع بين الإمتاع الأدبي والتحليل التاريخي،رابطا الأحداث ببعضها رغم البون الزمني الشاسع الذي يفصلها عن بعضها.إلا أن الكاتب ينظر في كتابه" جرائم الدولة،الكوميديا القضائية" للتاريخ نظرة كلية تحاول أن تكشف زيف الديمقراطية التي يدّعيها الغرب من خلال فضحه و كشف نفاق السياسي الغربي الذي لم يكن يهمه سوى الاستحواذ على مقدرات الآخر المختلف الضعيف،و محو هويته.كل ذلك في نص سير ذاتي و في قالب الاعترافات، وفق آليات بلاغية عديدة تجمع بين الجمالي والتاريخي.

الهوامش:

(1)-يحي إبراهيم عبد الدايم:الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث،دار إحياء التراث العربي،بيروت،ص:82.

(2)-ينظر أحمد بن علي آل مريع:السيرة الذاتية،الحد و المفهوم،دار صامد للنشر،الرياض،ـــط3 2010،ص:10.

(3)- ينظر مقدمة كتاب:جرائم الدولة الكوميديا القضائية لجاك فرجاس،قراءة و تعليق موسى زمولي،المكتبة الوطنية الجزائرية،منشورات ثالة،2008،و موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة،العنوان الإلكترونيhttp://ar . wikipedia.org،وينظر أيضا:جريدة النهار الجديد العدد الصادر بتاريخ:16 أغسطس 2013.

(4)- ينظر مقدمة الكتاب،كلمة المحقق.ص:13.

(5)- ينظر المرجع نفسه،الصفحة نفسها.

(6)-خالد حسين حسين:في نظرية العنوان:مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية،دار التكوين للتأليف والترجمة و النشر ،دمشق،2007،ص:89.

(7)- ميجان الرويلي و سعد البازعي:دليل الناقد الأدبي،المركز الثقافي العربي،بيروت،ط2002،3،ص:116.

(8)-خالد حسين حسين:في نظرية العنوان،ص:90.

(9)-المرجع نفسه،ص:90.

(10)-جميل حمداوي:"السيميوطيقا و العنونة"،مجلة عالم الفكر،الكويت المجلد25 العدد03،يناير/مارس 1997،ص:92.

(10)-جاك فرجاس:جرائم الدولة/الكوميديا القضائية،ترجمة محمد زمولي،ص:64.

(11)- المرجع نفسه،ص:78

(12)-جليلة طريطر:مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث(بحث في المرجعيات)،مؤسسة سعيدان للنشر،2004،ص:197.

(13)- المرجع نفسه،ص:79.

(14)-المرجع نفسه،ص:80.

(15)- سوزان عكاري:السخرية في مسرح أنطوان غندور،المؤسسة الحديثة للكتاب،طرابلس،لبنان،1994،ص:24.

(16)-زهير مبارك:السخرية في الرواية العربية،مركز الرواية العربية للنشر والتوزيع،تونس:ط1 2011،ص:122.

(17)-سيمون بطيش:الفكاهة والسخرية في أدب مارون عبود،دار مارون عبود،بيروت،ط1 1983،ص:16

(18)-جاك فرجاس:جرائم الدولة الكوميديا القضائية،تر محمد زمولي،ص:18.

(19)-المرجع نفسه،ص:18.

(20)-المرجع نفسه،ص:.19.

(21)- المرجع نفسه،ص:153.

(22)- المرجع نفسه،ص:20.

(23)- المرجع نفسه،ص:155.

(24)-المرجع نفسه،ص:155.

(25)-المرجع نفسه،ص:76.

(26)- سوزان عكاري:السخرية في مسرح أنطوان غندور،ص:69.

(27)-المرجع نفسه،ص:68.

(28)-المرجع نفسه،ص:66.

(29)-المرجع نفسه،ص:72.

(30)-جليلة الطريطر:مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث،بحث في المرجعيات،ص:203.

(31)-المرجع نفسه،ص:86